

الدرس الرابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى تحت «باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب» وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمة حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) رواه مسلم .

أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم في باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب ، وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تبين النهج السوي والطريق المبارك والجادة المستقيمة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم؛ وهي تلك الطريقة التي كان عليها الحواريون والأصحاب من صفوة أتباع الأنبياء وخلاصتهم ، قد ذكر صلوات الله وسلامه عليه هؤلاء الصفوة من أتباع الأنبياء مبيناً عليه الصلاة والسلام منهجهم المبارك ومسلكتهم القويم حثاً للأمة وترغيباً لها وتحريضاً لها ليأتسوا بأولئك الأخيار ويقتدوا بتلك الصفوة الأبرار من الحواريين والأصحاب حواريين الأنبياء وأصحابهم ، والنبي عليه الصلاة والسلام ذكر للناس ذلك حتى يعرفوا حال هؤلاء الأخيار وحليتهم وصفتهم ومسلكتهم ليقتدوا بهم في ذلك .

قال عليه الصلاة والسلام : ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمة حواريون وأصحاب)) قيل الحواريون: هم صفوة وخلاصة أصحاب الأنبياء ومقدموهم وخيارهم ، وهم أفضل أنصار الأنبياء وأفضل أتباعهم ولهذا قَدَّمهم عليه الصلاة والسلام . «وأصحاب»: أي صحبوا الأنبياء على الموافقة والاتباع والنصرة . فما من نبي بعثه الله إلا كان له من أمة حواريون وأصحاب ما هو نعمتهم ؟ وما هي صفتهم ؟ وما حليتهم ؟

قال عليه الصلاة والسلام مبيناً ذلك: ((يأخذون بسنته ويقتدون بأمره)) هذه صفة الحواريين والأصحاب الأخذ بسنة نبيهم واتباع أمره ، وكما قدمت ذكر ذلك لنا النبي صلى الله عليه وسلم لنتهدي بهؤلاء الصفوة وليكونوا لنا قدوة ، فحالمهم خير حال ومسلكتهم أفضل مسلك ، وواجب على كل مسلم أن يجاهد نفسه على أن يكون على هذه الصفة العظيمة ، ولخصها النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه في أمرين: قال ((يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره)) ؛ هذه خلاصة حال هؤلاء وخلاصة أمر هؤلاء في هذين الأمرين: يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره .

((يأخذون بسنته)): أي يتمسكون بها ويعولون عليها ويتحاكون إليها ويجعلون سنته هي مصدرهم وإمامهم ، لا يجعلون مصدرهم في التلقي الأهواء واتباع الظنون والأخذ بالمنامات وبناء الأحكام على القصص والحكايات أو بناء الأحكام على العقول المجردة والآراء ونحو ذلك ، بل شأنهم في التلقي الأخذ عن سنة نبيهم ؛ يحكمونا ويرجعون إليه ويعولون على ما جاء به وما كان من تنازع أعادوه إلى ما جاء عنه ، فهذا شأنهم «يأخذون بسنته» ، وهذا فيه بيان لصلاح علمهم ، فهم في العلم حالهم أحسن حال ، علومهم من علوم الأنبياء ، فقههم مأخوذ عن الأنبياء ، فهم ورثة الأنبياء ((فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) ، فهؤلاء في العلم أخذوا علوم الأنبياء تلقوها بشغف وأقبلوا عليها بلهف وتنافسوا في حفظها وضبطها والعناية بها وإبلاغها لمن كان بعدهم ، وقد قال نبيهم عليه الصلاة والسلام : ((نضر الله امرء سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها)) ، وسيأتي الحديث عند المصنف رحمه الله تعالى والكلام على معناه . هذا الجانب في صفة هؤلاء ((يأخذون بسنته)) وهو دليل على صلاح علومهم .

الجانب الثاني: قال ((ويقتدون بأمره)) وهذا فيه صلاح العمل ؛ فأعمالهم صالحة لأن قدوتهم فيها الأنبياء ، يقتدون بأمر نبيهم فلا يباشرون شيئا من الأعمال ولا يقومون بشيء من الطاعات والقربات إلا إذا كان فيها أمر للنبي عليه الصلاة والسلام وتوجيه منه إرشاد ((ويقتدون بأمره)) فهم في أعمالهم وطاعاتهم وعباداتهم وقرباتهم مقتدين بالأنبياء ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] .

فذكر عليه الصلاة والسلام في هاتين الجملتين صلاح العلم وصلاح العمل ؛ صلاح العلم بقوله صلوات الله وسلامه عليه ((يأخذون بسنته)) ، وصلاح العمل بقوله عليه الصلاة والسلام ((ويقتدون بأمره)) ، وهذا هو الهدى ودين الحق الذي بعث الله عز وجل به رسوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] الهدى: العلم النافع ، ودين الحق: العمل الصالح ، وفي دعاء المؤمنين المتكرر في كل صلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] ، عندما تقول في دعائك ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هؤلاء هم المنعم عليهم الأنبياء واتباع الأنبياء وخلاصة أتباع الأنبياء ، والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر لك هنا حليتهم وأنها تتلخص في أمرين: صلاح العلم وصلاح العمل ، وبه تعلم أن من كان من الناس صالحا في علمه لكون علمه متلقى من الأنبياء صالحا في عمله لكونه في عمله مقتديا بالأنبياء فهو من المنعم عليهم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ؛ المغضوب عليه: من عنده علم لا يعمل به ، والضال: من عنده

عمل بلا علم ، والمنعم عليه: من جمع بين العلم والعمل كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام هنا ((يأخذون بسنته)) هذا العلم ، ((ويقتدون بأمره)) هذا العمل ، علم نافع وعمل صالح ، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم إذا صلى الفجر دعا الله عز وجل قائلا : ((اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا صالحا)) وفي رواية ((وعملا متقبلا)) ، قال: ((يأخذون بسنته ويقتدون بأمره)) هذه حال الحواريين والأصحاب .

ثم ذكر حال أقوام يأتون بعدهم ويخالفون نهجهم وينحرفون عن جادتهم ؛ فوصفهم عليه الصلاة والسلام بقوله : ((ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف)) «ثم إنها» الضمير هنا يسمى ضمير الشأن ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف: أي يكون ويأتي من بعدهم خلوف ، و«خلوف» جمع خَلَفَ وهو الخالف بشر قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩] خَلَفَ بإسكان اللام ، الخلف جمعه خلوف وهو الخالف بشر ، أما من خلفهم بخير أي باقتداء واتباع وائتساء فيقال له «خَلَفَ» بفتح اللام أي خلف هؤلاء بخير ، أما من خلفهم بشر بالتخلي عن طريقهم والانحراف عن جادتهم فإنه يقال له «خَلَفَ» ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي خالف بشر.

قال: ((ثم إنه يأتي من بعدهم خلوف)) أي يأتي من بعدهم أقوام يخلفونهم بشر . والناصح لنفسه أيها الإخوة الكرام عندما يسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم هذا ((ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف)) أي يأتي من بعدهم أقوام يخلفونهم بشر؛ تنفر نفسه من هؤلاء ويتساءل ما هي صفة هؤلاء حتى أحذر من أن أكون منهم ؟ فوصفهم عليه الصلاة والسلام بصفيتين ، كما أنهم وصف الحواريين والأصحاب بصفيتين وصف هؤلاء الذين يخلفونهم بشر بصفيتين ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون)) هذه صفتهم منبهاً بذلك ومبينا عليه الصلاة والسلام إلى فساد عند هؤلاء في العلم والعمل ، كما أن أولئك عندهم صلاح في العلم والعمل فهؤلاء فساد في العلم والعمل ، فساد في الجانبين : العلم أي المصدر الذي يتلقون عنه العلم ليس الأخذ بالسنة سنة الأنبياء ، والعمل أيضا جانب العمل هم منحرفون فيه ، فلا علومهم علوماً متلقاة من الأنبياء ، ولا أيضا أعمالهم أعمال صالحات يقتدون فيها بالأنبياء ، ففيهم الفساد في العلم وفساد في العمل ، وأولئك فيهم صلاح في العلم وصلاح في العمل . إذا الخلوف الذين يخلفون الأنبياء بشر وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بصفيتين : الأولى يقولون ما لا يفعلون والثانية يفعلون ما لا يؤمرون .

«يقولون ما لا يفعلون» ؛ هذا تفريط في العمل ، ليسو أصحاب أعمال وجد واجتهاد في التقرب إلى الله عز وجل ، بل يقولون أقوالا ويتكلمون كلاما من البر مثلا والطاعات لا يفعلونها ولا يقومون بها ، والله جل وعلا قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] ، وقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ

وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ٤٤﴾ ، وقال عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] ؛ وهذه الآيات الثلاث أشار بعض السلف إلى أن كل معلم ومفقه وناصح يجب أن تكون نصب عينيه لئلا يكون حاله قول بلا عمل ، يضيء للناس الطريق ولكنه في نفسه ضائع ومقصر ومفرط . قال «يقولون ما لا يفعلون» .

«ويفعلون ما لا يؤمرون» أي أنهم لا يتلقون علومهم من الأنبياء ولا يصدرون عما جاء به الأنبياء ؛ ولهذا وصفهم هنا بقوله «ويفعلون ما لا يؤمرون» أي يأتون بأفعال وأمر وعبادات لم يؤمروا بها . هناك قال: «يقتدون بأمره» أي بأمر نبيهم ، وهنا قال: «يفعلون ما لا يؤمرون» أي يأتون بأفعال وأعمال وطاعات لم يؤمروا بها ولم يدعوا إليها من قبل أنبيائهم .

فبين عليه الصلاة والسلام أن صفة الخلوف اذين يخلفون الأنبياء بالشر تتلخص في فساد العلم وفساد العمل وذلك بقوله في وصفهم ((يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون)) . ثم بيّن عليه الصلاة والسلام ما ينبغي على من رأى هؤلاء الذين خلفوا الأنبياء بشر ، من رأيهم ماذا عليه أن يصنع؟ كيف يكون أمره معهم؟ بيّن ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله: ((فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) ؛ هذا نظير قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده)) لأن الذي عليه هؤلاء من أنكر المنكر ، قال ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان)) ، وقد ذكر العلماء رحمهم الله أن التغيير باليد ليس مناطا بكل أحد وإنما هو مناط بمن بيده الولاية والسلطة بحيث يستطيع أن يغير ويزيل المنكر بيده ، أما من لا ولاية له ولا سلطة عليه إذا أخذ يغير بيده ربما دبّت في الناس الفوضى واستفشى فيهم الشر والقتل وعمّتهم الفوضى ، فالتغيير باليد لمن بيده سلطة ؛ الوالي في بلده ، الأمير السلطان ، الوالد في بيته عندما يرى على ولده وأهله في البيت أمور من المنكرات والمخالفات ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه)) وأيضا اللسان ليس أمرا مطلقا لكل أحد بل لا يتكلم إلا من عنده علم ، لا يتكلم منكرا بلسانه إلا من عنده علم ، فإنكار المنكر لابد فيه من العلم ولا بد فيه من الحلم ولا بد فيه من الصبر ، هذه أمور لابد منها في إنكار المنكر . قال ((فليغيره بلسانه)) يغير بلسانه مبيّنا نكارة هذا المنكر وفساده بالحجة والبرهان والدليل الساطع والحجة البينة من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . قال ((فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان)) أي أضعف مراتب الإيمان في هذا الجانب إنكار المنكر التغيير بالقلب ؛ وذلك بأن يكره القلب المنكر ويبغضه ويبغض وجوده .

وهنا في هذا الحديث قال: ((فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن)) من جاهد هؤلاء بيده إن كان من أهل ذلك ومن أهل الاستطاعة على ذلك فهو مؤمن ، ((ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن)) إذا كان من أهل الاستطاعة لهذا الأمر والله عز وجل قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] والحديث المتقدم قال: ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه)) فالأمر حسب الاستطاعة إذا كان مستطيعا لذلك يفعلُه إن كان من أهل الاستطاعة لهذا الأمر، وإلا ينتقل للذي بعده لا يكون هذا فرضه إنما يكون فرضه الذي بعده إذا لم يكن مستطيعا .

قال: ((ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن)) وهذه كما في الحديث الآخر أضعف الإيمان. إذا الإنكار باليد من الإيمان ، والإنكار باللسان من الإيمان ، والإنكار بالقلب من الإيمان ، وأرفع ذلك الإنكار باليد ثم اللسان ثم القلب على حسب الترتيب الذي جاء في الحديث ، وهذا مما يدل على تفاوت أهل الإيمان في الإيمان قوةً وضعفاً وزيادة ونقصا وأنهم ليسو فيه على رتبة واحدة .

وقوله في الحديث ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) أي ولا مقدار يسير ولا ذرة يسيرة ، ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) المراد به أن هذا الأمر الذي هو الأمر الثالث المجاهدة بالقلب كراهيةً وبغضا ، لأن هذا المراد ((ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن)) كيف يجاهدهم بقلبه دون استعمال لليد ودون استعمال للسان؟ كيف يكون مجاهداً لهم بقلبه؟ بأن يكره قلبه ما هم عليه ويبغض المنكر الذي يقومون به وينفر منهم ومن مجالسهم ويكون مبغضا كارهًا ؛ هذه مجاهدة بالقلب ، قال: ((ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن)) .

قوله في تمام الحديث ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) المراد به : أن هذه الرتبة رتبة المجاهدة بالقلب هي أقل رتبة من رتب الإيمان ، أقل رتبة توصف بأنها إيمان ليس هناك بعد ذلك شيء يوصف بأنه إيمان ، ينبغي أن نفهم هذا ؛ مراده بقوله ((ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) أي أن الإنكار بالقلب والمجاهدة بالقلب هي أقل رتبة في هذا الباب توصف بأنها إيمان ، وليس المراد بقوله ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) نفي أصل الإيمان عمن لم يكره بقلبه المنكر ، بل قد يكون الإنسان يباشر المنكر محبا له مائلة نفسه إليه ولا يرفع عنه أصل الإيمان ولا ينفى عنه أصل الإيمان! لهوى في نفسه وجنوح عنده في فعل المنكر ومباشرة له ومحبة لفعله فلا يكون بذلك منتقلا من الإيمان أو منتفيا عنه أصل الإيمان أو خارجا من دائرة الإيمان ، بل الذي يُنفى عنه في هذا الحال كمال الإيمان الواجب لا أصله ، ومراد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) أي أن هذا القدر الذي هو المجاهدة بالقلب هي أقل وأدنى قدرٍ يوصف فعله بأنه إيمان ، بعد ذلك لا يوجد شيء من خصال الإيمان ، لكن من انتفت في حقه هذه الخصلة ليس معنى ذلك أن أصل الإيمان منتفٍ عنده ، بل قد يفعل المنكر هو بنفسه قد يفعل الكبيرة ولا يكون بها خارجا من الإيمان ، لأن الحق في مرتكب

الكبيرة فيما دون الشرك بالله تبارك وتعالى: أنه مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، لا يُنفى عنه أصل الإيمان ولا يثبت أيضا له كماله ، بل شأنه أنه مؤمن ناقص الإيمان .

الشاهد أن هذا حديث عظيم جدا ذكر لنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم حال صفوة الأنبياء وخلاصة أتباع الأنبياء ، ووصفهم عليه الصلاة والسلام بأنهم يقتدون بأمر الأنبياء ويستنون بسنة الأنبياء ، ثم حذر صلى الله عليه وسلم من خلوف يخلفون أتباع الأنبياء بشر ؛ وصفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، ثم دعا عليه الصلاة والسلام إلى مجاهدة هؤلاء كل في مقدوره ومستطاعه ، فمن جاهدتهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدتهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدتهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

قال رحمه الله تعالى :

وعن جابر رضي الله عنه : أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن تكتب بعضها ؟! فقال : ((أمتهكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى!! لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) رواه أحمد .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن جابر رضي الله عنه : ((أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا)) ربما يكون بعض هذه الأحاديث تتحدث عن شيء من الآداب أو شيء من الفضائل أو شيء من الأخلاق أو من المعاملات أو نحو ذلك .

قال ((إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا)) وهنا يا إخوان ينبغي أن ننتبه إلى من الذي قال هذه الكلمة «تعجبنا»؟ صحابي بل قد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم ((لو كان في الأمة ملهمون أو محدثون لكان عمر)) صحابي على قدر عالي من العلم والفهم والفطنة والنباهة والفضل والخير .

قال: ((إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟!)) الآن ما الذي طلب أن يكتبه رضي الله عنه؟ طلب أن يكتب بعض الأحاديث التي تأتي عن هؤلاء قال «تعجبنا» يعني نحن عموما في جوانب واضحة وجوانب جميلة وجوانب جيدة ، أفنكتب ذلك؟ هذا السؤال الذي طرحه عمر ينبغي أن ننتبه له ، لأننا في هذا الزمان بُلينا ابتلاء واسعا عريضا بتلقف الآداب والأخلاق والبحث عنها عند الغرب وعند أمم الكفر وكأنه ليس بين أيدينا كتاب من رب العالمين نتلوه! وليس بين أيدينا سنة من النبي صلى الله عليه وسلم واضحة بينة غراء! كأننا عُمدنا في كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم الأخلاق! وكأن جانب الأخلاق والآداب لم تبين في الكتاب والسنة، فأخذ يميم بعض الناس شرقا وغربا ويبحثون عن آداب وأخلاق وفضائل يأخذونها من فلان وعلان من كفر لا يؤمنون بالله ولا يدينون بدين الله عز وجل فيتلقون عنهم الآداب والأخلاق ، وبين أيديهم

كتاب الله يتلى ، وبين أيديهم سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم واضحة بينة ((تركتكم على البيضاء)) ، والكتاب والسنة جمع الله سبحانه وتعالى لهم للناس فيهما كل خير ، وجعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ، فيه الآداب وفيه الأخلاق وفيه المعاملات وفيه العلوم النافعة والآداب الكاملة وفيه كل خير يرجوه الإنسان في دنياه وأخراه .

وبهذا تعلم الخطأ الكبير الذي يقع فيه كثير من الناس؛ يكتبون أشياء عن أمم الكفر من اليهود من النصارى من المجوس من الوثنيين من حتى الملاحدة الذين لا دين عندهم أصلاً ومن الشيوعيين ؛ يكتبون وينشرونها بين الناس ويقولون هذا كلام جميل وربما قالوا هذا كلام عليه نور وأشياء من هذا القبيل ، فسبحان الله ! كيف أصيب الناس هذه الإصابة العظيمة ووقعوا في هذا البلاء العظيم !!

فعمر رضي الله عنه ذكر أشياء قليلة قال تعجبنا أنكتبها ؟ هل نكتبها ؟ وكتابتها تعني العناية بها والاحتفاء بها والاهتمام بها وحفظها حتى تبقى بين الناس متداولة تُنشر ، وهذا يبين لنا قيمة الكتابة وأنها تحفظ العلوم ، من أعظم الوسائل لحفظ العلوم ونشرها قال ((أنكتبها؟)) نقيّد هذه الأمور؟ نكتبها عندنا ؟ والآن إذا نظرت كم من الأشياء التي في باب الآداب وباب الأخلاق وباب المعاملات يكتبها الناس متلقاة عن الغرب وعن أمم الكفر ! أليس في ديننا وكتاب ربنا صلاح أمرنا وسعادتنا في ديانا وأخرانا ؟ صلاح الدين وصلاح الدنيا وصلاح الآخرة أليست مجتمعة لنا في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام؟! .

فقال عليه الصلاة والسلام لعمر رضي الله عنه : ((أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى)) ؛ والتهوك في الأمور: الدخول فيها على غير بينة وعلى غير ثبت وعلى غير حجة وبرهان ، يدخل في الأمر ولا يكون في الأمر صلاحٌ له بل يكون باب شر عليه .

قال: ((أمتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى)) واليهود والنصارى وقعوا في التهوك عندما تخلوا عن الكتاب الذي بين أيديهم واشتغلوا بأمور أخرى يستحسنونها وتعجبهم ويميلون إليها حتى وقعوا بسبب ذلك في بعد كبير عن الكتاب الذي أنزل إليهم .

قال: ((لقد جئتمكم بها بيضاء نقية)) وهنا يقف المسلم عند هذا الوصف العظيم لدين الله تبارك وتعالى قال: ((لقد جئتمكم بها بيضاء نقية)) أي واضحة ، نقية: أي ليس فيها دخل وليس فيها خلل وليس فيها قصور بل هي نقية ، صفوة وخلاصة وزبدة في كل الجوانب ؛ في العقيدة ، في العبادة ، في الأخلاق ؛ إذا نظرت في العقيدة التي جاء بها عليها الصلاة والسلام فهي أصح العقائد وأكملها ، وإذا نظرت إلى العبادات التي جاء بها عليه الصلاة والسلام فهي أعظم العبادات وأتمها ، وإذا نظرت إلى الأخلاق والآداب التي جاء بها عليه الصلاة والسلام فهي أرفع الأخلاق وأجلها ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) أو ((لأتمم صالح الأخلاق)) ، فجميع هذه الجوانب

كملاها عليه الصلاة والسلام ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي عقيدة وعبادة وخلقا ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) لو كان موسى حيا أي معكم وبين أظهركم لم يسعه إلا أن يكون متبعا لي مقتديا بي فيما جئت به ؛ وهذا يفيد أن جميع الكتب التي قبل نبينا عليه الصلاة والسلام التي هي وحي من الله منزلة من رب العالمين ، جميع الكتب منسوخة بالقرآن ومنسوخة بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام . فإذا كان الأمر بهذا المبلغ وبهذه الدرجة لو كان موسى حيا ومعه كتابه الذي أنزله الله عليه لم يسعه إلا أن يتبع النبي عليه الصلاة والسلام فكيف نكتب عنهم؟ وكيف نأخذ منهم؟ وكيف نتلقى من أخلاقهم وآدابهم؟! فهذا كله من التفريط في الدين والإضاعة له . إذا أراد المسلم أفضل العقائد موجودة في القرآن والسنة ، إذا أراد أفضل العبادات والطاعات موجودة في الكتاب والسنة ، إذا أراد أفضل الآداب والأخلاق موجودة في الكتاب والسنة لم يفرط فيهما من شيء في العقيدة والعبادة والأخلاق كل ذلك كُمل في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى يبين لطالب العلم نهجا سويا مباركا في كيفية طلب العلم ألا وهو: أن يكرس جهوده ويحفظ وقته في حفظ العلم الموروث عن النبي عليه الصلاة والسلام ((فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) .

تعجب غاية العجب من أقوام لا يحفظون آيات وردت في القرآن جمعت الأدب كله جمعت الخلق كله ثم تجده يحفظ كلمة لكافر فاجر ويتشدد بها ويعجب بها ! وآيات من القرآن جمعت الآداب والأخلاق جمعا وافيا تجده لا يحفظها ولا يعرف معناها ولم يتفقه في مدلولها ! فأين طلب الإنسان الخيرية لنفسه إذا كانت حاله بهذه الحال معرضا عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وميِّمًا ومشرقًا ومغربًا . ثم أيضا يؤلم في هذا الباب أشد الألم مدارس بدأت تنتشر في أوساط المسلمين وفي ديار المسلمين ويسمُّون تلك المدارس وتلك الدروس التي يعقدونها يسمونها «تدريب» ويسمون من يقوم بتلك الأمور «المدرِّب» ويعقدون ندوات ودورات لصناعة الذات وخلق المواهب وإيجاد المهارات ، ثم تنصبُ جهودهم في بيان هذا الأمر على أشياء تُلقيت من الغرب ، بعضهم يحاول أن يصفي وينقي لخلفية يسيرة عنده في العلوم الشرعية ، وبعضهم أخذ ما عند الغرب بعلاته حتى بما فيه من شركات وما فيه من انحراف عن دين الله وما فيه من تعلق بالأسباب وإعراض عن التوكل على الله والاستعانة به وطلب العون والمد منه ، وأدخلوا الناس في أوهام وخرافات لا حد لها في جانب معالجة المشاكل ، في جانب ترتيب الأمور وتنظيم الأوقات ، في جوانب الحياة الزوجية ونحو ذلك أتوا بأمور وأشياء تلقيت من الغرب ، بعضهم حاول أن يصفي وبعضهم أخذ الأمر على علاته ، بعضهم حاول يصفي ومع محاولة التصفية يبقى رواسب وأشياء مخلة

قد لا يدركها هذا الذي أراد أن يصفى لقله علمه وقله درايته بدين الله عز وجل ، وآخرون أخذوا الأمور بعلاقتها ثم يتحدثون عن حل المشاكل وطلب السعادة صناعة الذات أشياء من هذا القبيل في أمور عند العاقل وعند المنصف ما أنزل الله بها من سلطان ، وجاءوا في هذا الباب بعجائب وغرائب .

عندما تنظر إلى القرآن والسنة في حل مشكلات الإنسان وما يصادفه في حياته من هموم أو من غموم أو ما يواجهه في حياته من مشاكل كيف يعالجها في ضوء القرآن والسنة؟ تجد العلاج الشافي تجد البلسم تجد طب القلوب والأبدان ، بينما ترى عند هؤلاء في معالجة المشاكل خرافات، كلام ساقط ، كلام نابع من قلوب خاوية من قلوب كفار قلوب خاوية لا تحسن كيف تحل مشاكل .

أضرب لكم مثالا واحداً حتى ندرك الانحراف العريض الذي وقع في هذا الباب . أحدهم كما نقل لي يتحدث مع مجموعة أمامه فيما يسمى بالتدريب في حل المشاكل قال : إذا وقعت في مشكلة في حياتك مشكلة عويصة جداً أرقتك لا تستطيع معها أن تنام ولا أن ترتاح ومشكلة طويلة في حياتك كيف تتخلص منها؟ قال: تجلس في غرفة وحدك ليس معك أحد تغلق الباب وتنظر إلى الجدار الذي أمامك وتتصور أن أمامك شاشة التلفاز وأنك فتحت الشاشة وبدأ التلفاز يشغل أمامك ، واجتهد وأنت تتصور وتتخيل أن تعرض المشكلة التي عندك من بدايتها في التلفاز ، كأن التلفاز أمامك مفتوح وشغل ذهنك واجمع قلبك واهتم وركز أمامك كأن الشاشة تشتغل أمامك من بداية المشكلة . والذين أمامهم مطرقتين إلى هذا العلم والفتوحات التي ما سبقوا إليها ، يقول اعرض المشكلة على التلفاز من أولها إلى آخرها وأنت تتابع الحدث من أوله وكأنها أمامك وكأنك تنتظر إليها خطوة خطوة ، وعندهم براعة في العرض ومهارة في الكلام وتزيينه وزخرفة القول وتزيينه ، عندهم مهارة لا يبارون فيها وأوتوا بذلك ذكاءً ولكن لم يأتوا زكاءً ، أتوا فهموماً ولم يأتوا علوماً كما هو الشأن في أساطين الفلاسفة ، قال: فلما تقارب المشكلة أن تصل إلى تمامها وهي تعرض أمامك على الشاشة رأساً وبشكل سريع تأخذ حجر أنت في الغرفة يقول ليس عندك حجر ولكن كل هذا تصور ، خذ حجر وكأنك أخذت حجر واكسر الشاشة التي أمامك ستحطم الشاشة أمامك ، والمشكلة التي كنت تعاني منها سترها أمامك تحطمت وخرجت من نفسك وتكسرت في الشاشة ، بقيت المشكلة خارج ذاتك وأصبحت المشكلة ليست في نفسك وإنما في الشاشة وتكسرت ، تخرج من الغرفة وأنت مغتبط لأنك كسرت المشكلة وحطمتها ولم يبق شيء ، ومثل هذا الركام من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان . ثم يزيد هذا القائل يقول : وإذا انتهيت وخرجت ليس عندك مشكلة تحطمت المشكلة أمامك في نفس اللحظة تمسك يدك بالإبهام وتضغطها بشدة بشكل مؤلم ، ثم إذا قُدر أنه حصل وأن المشكلة بدأت تعود ليس هناك حاجة أن تجلس الجلوس الطويل لتكسر المشكلة على الشاشة مرة ثانية بل تضغط بإبهامك الموضع الذي كسرت فيه المشكلة تضغط بإبهامك فتجد أنها التفت.

ثم إذا انتهى التدريب وسمعوا هذه المحاضرة كل واحد يدفع مبلغ وقدره كذا على هذا العلم الغزير الذي أخذوه من المدرب ! ويتقبلون هذا بالشكر وبالتقدير والحفاوة ويخرج الواحد منهم مغتبطا "أنا اليوم أخذت من المدرب الفلاني" ، وأيضا يعطيه المدرب شهادة أنه تدرب على يديه ويعطيه إذن يقول له درّب الناس على حل المشاكل .
والقرآن والسنة يتركان جانبًا ويشتغل الناس على أيدي هؤلاء المدربين بالانحرافات والضلالات التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ألا فلتنق الله عز وجل ، ولنعظم كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكل ما نطلب من الخير والسعادة والفلاح والرفعة وحل المشاكل وطمأنينة القلوب وسعادة النفوس كل ما نطلبه موجود في الكتاب والسنة ((تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)) تركنا عليه الصلاة والسلام على بيضاء نقية ؛ فيجب أن يُنتبه لهذا الأمر وأن يحذر من هذه الأمور بأي مسميات كانت ، وأن يكون إقبال المسلم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليكن لنا عظة وعبرة بهذا التنبيه المبارك والتوجيه السديد لنبينا عليه الصلاة والسلام .
عمر لما قال ((أنكتب عنهم ذلك؟)) يعني هذه الأشياء التي تعجبنا مما نسمعه من اليهود والنصارى أنكتب ذلك؟ والذي سيكتب ويتنقي ويأخذ الكلام مصفى ليس أي أحد وإنما هو عمر رضي الله عنه ، ومع ذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أشد التحذير قال : ((أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جنتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) .

قوله في الحديث ((لو كان موسى حيا)) وموسى كليم الله عليه صلوات الله وسلامه ((ما وسعه إلا اتباعي)) أن يتبعني ؛ فهذا فيه رد على بعض الغلاة من الطرقية الذي يدّعي لنفسه أنه واصل ويزعم أن التكاليف سقطت عنه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول ((لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) فهذا يبين زيف مثل هذه الدعاوى .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين